

● قاصص

دار
رواق منشورة
للنشر الإلكتروني

العزيمتين

حميد بن خبيث

نوع العمل: مجموعة قصصية

اسم العمل: العريس

اسم المؤلف: حميد بن خبيش

الناشر: حروف منثورة للنشر الإلكتروني

الطبعة: الأولى أبريل 2016

تصميم الغلاف: مروان محمد

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإلكتروني من خلال الضغط
على الرابط التالي:

<http://herufmansoura2011.wix.com/ebook>

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال
الضغط على الرابط التالي:

<http://facebook.com/herufmansoura>

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالي:

Herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الإلكتروني ولا
تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى الذي يتحمل مسؤوليته الكاتب وحده فقط
وله حق استغلاله كيفما يشاء

حميد بن خبيش

العريس

قصص قصيرة

الفهرس

6	تقديم
7	العريس
11	التاكسي
15	عرفان
18	هل سارى العالم ؟
21	صاحبى
23	أمى مُعلمة !
27	بأ عرب
31	البندق
34	"ولاد" فرنسا
38	خطاب سفلى إلى جهة عليا
43	جنان القرمود
46	لبيك !
50	يا شيخ ..
54	وعد
56	آمنة
59	إضراب
61	الرُعاة

تقديم

القصص القصيرة متنفسى الوحيد للتنديد و الاحتجاج , و عرض
آرائى ضمن قوالب لا تؤثر فى شبكة علاقاتى الإنسانية.

بعضهم سينزعج حتما حين يلمس الفارق الهش بين البوح
بمصاعبه اليومية وبعض أقصوصاتى .

عذرى الوحيد أن لكل بوح لمساته الفنية الرشيقة التى تستحق
أن تُدرج ضمن سياق أرحب .

كلنا من آدم !

حميد بن خبيش

[رجوع للفهرس](#)

العريس

جريا على العادة في قريته ، لا يصح لابن الخامسة و العشرين أن
يخطب أرملة أو عانساً. لا بد من بكر تصغره بسنوات و تليق
بفورة شبابه !

حاول يئسا أن يستميل الجدة إلى صفه. كان يدرك أنها كغيرها من
عجائز القرية، تمتح صلابتها و عنادها من التلال الصخرية التي
تسيج هذا الفضاء العابس . انسل تحت جناح الظلام من خيمته و
حث الخطى مسرعا إلى حيث تواعدا. إنها هنا منذ ساعة ترقب
مجيئه .

فطومة .. مهرة القرية التي تعب غيره في ترويضها .

أجل ! إنها هنا متلفعة ببرنس أبيض ، تداعب الحصى بخنجرها
الأثير . لم يحل بينهما غير زيجة فاشلة حملت وزرها منذ سنين
مضت . الرجل يبقى رجلا، هكذا قالوا ، حتى لو كان ندلا يسقيها
العلقم في غدوه ورواحه !

- تبدو متدمرا ؟

- كالعادة ! أهون علي أن أرتطم بقعر بئر سحيق من أن أفاوض

الجدة !

تبسمت على مضض وهي تغالب دمة فائرة :

- الذنب ليس ذنبها، إنها العوائد التي تجاهد المسكينة للوفاء لها، ولأرواح من ماتوا دفاعا عن كومة الصخر. وأشارت بيدها إلى التلال المحيطة بالقرية، كي تجتاحها أسراب ماعزنا في هدوء .

صاح منفلا : وما دخل الأرواح بزواجنا نحن ؟

- هون عليك .. يبدو أنك تتظاهر بعدم الفهم ،كلانا يدرك جيدا أن البكر قربان للجدب القاسي ،والرمل الزاحف على الخيام .

- خرافة !

- بل هي لعنة ..لعنة لا يخفف من غلوائها سوى دم عذراء ليلة العرس، تُخط به التمام وتُعلق على أكتاف الصغار.

رمقته بطرف خفي ثم أردفت : من يدري، قد يحن ضرع

السماء ليلة عرسك !

- عرسي ؟

- أجل .. يقولون إنك ولد مبارك لأنها أمطرت على وقع صراخ أمك وهي تفتح ذراعيها للموت ساعة ولادتك !

ران على المكان صمت مثقل بالهموم .أملزم بالوفاء
لروحها ؟ لكن ..

- سأذهب..يوشك ضياء الفجر أن يفضح مجلسنا ،وأنت بحاجة إلى
كل ذرة إخلاص لعروسك .

نهض متثاقلا ثم ساعدها على التلغع ببرنسها جيدا قبل أن
يعود أدراجه .

دوت طلقات البارود ليلتها بعنف ،و شقت الزغاريد ثوب
السكون.حتى الجدة استعادت بعض عافيتها وهي تنتقل بخفة غير
معتادة بين المواقد المنصوبة وخيام المدعوين !

هبّت ريح باردة انفرجت لها الأسارير،فانهمك شيوخ القرية في
سرد بطولات الآباء،والثناء على الدوحة الوارفة التي أنجبت أم
العريس و أخواله !

داعب هواء رطب خصلات من شعر فطومة وهي تطوق
خصره.كان الحصان الذي ورثته عن زيجتها الفاشلة يعدو كسهم
بين التلال الصخرية.همست في أذنه بحنان :

- توشك السماء أن تمطر !

هز كتفيه ساخرا،وما إن حاذى مقبرة الأسلاف حتى صاح
كالمجنون : خرافة !

[رجوع للفهرس](#)

التاكسي

التاكسي قطعة من عذابنا اليومي .

سائقا كنت أو راكبا لا فرق !

تتحشر الأجساد داخل علبة صفيح لتقطع مفازة من اللهو أو الترقب . تتخلى أرواح كثيرة عن صلفها المعتاد مادامت تتأرجح على كف السلامة !

يُمدك كهل بحكمة أو ماثرة، و يشرع آخر في استعراض خيباته و فتوحاته .

يسعفك الحظ أحيانا برفقة صامته لا يشغلها سوى موعد الوصول، فيخف وزنك و تهدأ روحك في المنعرجات القاسية . أما إن ابتليت بهواة الصخب فما عليك إلا احتمال لغو يقتحم خلوتك .

عادة ما أتطلع في سحنة السائق جيدا قبل أن أصحبه في رحلة الموت هذه . أبذل وسعي ،كأي عرافة غجرية , لأستشف من ملامحه و نبرة صوته ما يحدد مصير أرواح مكدسة في المقعد الجانبي و الخلفي .منهم الواثق الذي خلفت صروف الدهر على محياه تراتيلها المرة .وخفيف الظل ممن يُحيلون فضاء التاكسي

فسحة للتندر و القهقهة العذبة. وفيهم مبعوث الفجيرة الذي يُمطر صباحك بوابل من الشتائم. فظ دائم التشكي، لا يطيق حتى قميصه على ظهره. تبدو الرحلة معه أشبه بوقوف مُفلس أمام قضاة مرتشين!

في التاكسي يتجدد إيمانك كلما اهتزت العجلات أو حدث عطل مفاجيء. تتمتات و تضرع للباري كي يطيل شغف الحياة. دونما استئذان يشرع أحدهم في سرد تجربته المرة :

"كان الوقت عصرا و السماء تجود ببعض قطراتها، فجأة داهمنا ضباب كثيف أرخى ستاره الكحلي على المنعرجات . خفف السائق من سرعته وأضاء المصابيح الأمامية , لكن لم يُغن حذر من قدر ! إذ باغتتنا سيارة ذات دفع رباعي تحضن مقودها روح طائشة . قرر السائق اجتناب الأسوأ فغير الوجهة صوب المنحدر".

في التاكسي تبلغ النعمة ذروتها على أثرياء الطفرة الكاذبة . قصص تُروى و أيمان غليظة تحملك على الإذعان لما لا يُصدق . تتضارب التخمينات بشأن غنائم " فلان " من المقالع ، وودائع " إعلان " في البنوك . كعادتهم ، لا يجيد البسطاء التحليل الكمي

لمرويات الفساد ! يعقد راكب في خريف العمر مقارنة طريفة بين قوت البغل من شعير الأيام الخوالي، و حصته اليوم من العلف المدعم .البغل هو البغل و الشعير شعير , لكنها "اللهفة" ! بوصلة النفوس المعطوبة.فصل آخر من ملحمة الجوع الآدمي الذي لا يكف عن ابتلاع كل شيء .

سمعت آخر نكتة ؟

في التاكسي دُعابة متفردة وطُرف لا تنتهي . أبدى السائق تدمره من حواجز مرورية لا تستوقف غير البسطاء.تنزلق سيارات ذوي الجاه والرفاه كقطع صابون على الإسفلت دون أن يجرؤ أحدهم على التلويح بيده . علق أحدهم ساخرا بأن الأثرياء يُحبون تقليد سيارة الإسعاف في اجترائها على قواعد السير، لذا سرعان ما يركبونها في طريق العودة . ابتسم الجميع ثم شرعت الأفواه في لوك طرائف تمتح من غيظ مكتوم .

أوشكنا على الوصول فتململت الأجساد المنهكة .بدا الأمر أشبه بفرحة ولادة بعد مخاض عسير .ما إن تتوقف العجلات عن دورانها الرتيب حتى نتجاهل بعضنا وتفترق الخطى في شعاب

الحياة. لا غرابة، فحياكة الإسفلت جيئة وذهابا عودتني على عدم
الوثوق بما يسري في التاكسي من ألفة وتودد .

إنه قطعة من زيفنا اليومي ..

سائقا كنت أو راكبا .. لا فرق !

[رجوع للفهرس](#)

عرفان

عادة ما تولد الفكرة من توتر الذهن أمام المدهش وغير المعتاد.
يكسر حدث ما ألفة رتيبة مع وقائع غير متجددة، فيوقد الذهن
شعلة تسري في المعاجم : حروف تلتقي وكلمات تحن إلى
استوائها على رصيف العبارة. يلتقط المؤلف مسودته ثم يشرع
في تحديد معالم كذبه المقبلة. قيل أن الإبداع يتطلب المواجهة
ومناداة كل لون باسمه، حتى وإن تآرجح قوس قزح فوق رأسك
كحبل يشتهي الرقبة ! لكن مشكلة حُسنِي أنه من صنف
الرخويات، يكره رائحة الدم ولا يطيق الكتابة بشفرة حلاقة. كان
في مقتبل خربشاته حين استدعاه "الباشا" ليحدثه عن افتتانه
بالشباب الذين يُعبرون عن انتمائهم بنضج، ولا يتهيبون العصي
و البنادق المحشوة ببارود تالف. لم يعلق بذاكرته غير دوي
الصفعة الأولى و سيل اللعنات التي اقتلعت أجداده من رحاب
الفردوس لتلقي بهم في جحيم "دانتي".

إنه اليوم في عنفوان خربشاته، يتردد بين صالونات الفن متحينا
فرصة الإدلاء برأي في لوحة رسام مغمور، أومزهاوا بكشف
ثغرات في تجربة قصصية لحساء لم تستجب لنداء الغريزة !

وحده اليوم ناقد يحظى ببهجة الكاميرا وحفاوة الاستقبال. المسكينة أنيتا العجرية تتابع عن كثب كيف يلقي بها جحوده في عمة النسيان. أرملة مقامر فر بجلده من جحيم فرانكو ليصرف عمره في تهريب اللوحات الرخيصة والتحف المسروقة من غرف الأميرات. وحدهما الدم العجري وما تخثر في النفس من أنين "الكالديراري"، تلك الرحلة التي نثرت العارفين بأسرار البرونز في أنحاء القارة العجوز. إنها اليوم تدين له بثناء حرك شهوة الطامعين في البلدة. لكن حسني أدمن طرق الباب حتى ولج ! تذكر إصراره على أن يكون تريباكا لوحشتها، وأبلغ في الحرص على أموالها من صيرفي يهودي. تصدر عن القلب تهيدة وهي تتطلع لصورة حفل الزفاف. بدت يومها جذلى في ثوب أبيض أحال فارق السن بينهما إلى مزحة. حسني شاب طيب، أجل، لكنه لا يحفل بمن تطأه قدماه في رحلة الصعود إلى المجد. يرتمي في حضنها شاحبا كعود قصب، لكنه سرعان ما يسترد قواه الخائرة ليصفق الباب خلفه. ويرحل.

تتابع كل ليلة خميس مداخلته على الشاشة. لا يمل من كيل التهم ورشق الجهات الوصية على القطاع. جرأته و انحيازه للمسارات الهشة أكسباه حضورا لافتا في أدبيات الموجة الصاعدة. أب

روحي ؟ ربما, لكن حادثة الصفحة لا تزال كامنة في شقوق
أحلامه المزعجة.حسني شاب طيب، أجل.. وسيذكر حتما أنها
كانت مجاله الرحب للإفصاح عن مخاوفه، أنيتا هي التعويذة التي
تشفي روحه المتورمة، وتمسح بيد حانية حبات العرق البارد
المكورة على جبينه كلما قفز من سريره مذعورا.

يصر على أنها مجرد صفقة وتذكرة عبور من بدايات الطيش
إلى نضج وواقعية تستوعب قواعد اللعبة. لن تمنحك جرأة البوح
سوى مقعد خلفي في الذاكرة، فالشعوب هي الشعوب، قد تحمد لك
صيحات في الوادي ثم تستسلم لخطر النوم اللذيذ. كف عن
ملاحقة خيط أحلامه الواهي لينساب كالحية على بطنها في
الردهة الموصلة إلى المجد. لم يكن لذرائعه وقع في نفس أنيتا
المصقولة مثل سيف محارب، فللمجد مرقاة واحدة مستقيمة كظل
سنديانة، لا تمنح شرف الصعود إلا لمن خط بمداد الروح صدق
انتماء للوجع الإنساني. يضحك حسني حين تحته على أن يرفع
رأسه بين الفينة والأخرى كي لا يألف الانحناء.ربما غاب عن
أنيتا وهي تبدد الخوف الرابض في شقوق أحلامه، أن كاتبها من
صنف الرخويات لا تأسره احتمالات السمو !

[رجوع للفهرس](#)

هل سأرى العالم ؟

أنا الموظف ع.س..

أحلم منذ صباي بالسفر و التجوال و ارتياد مجاهل الدنيا . بلدتي لا تغري أحدا بالبقاء فيها . من الأبله الذي يتعلق فؤاده بكومة أحجار ووجوه لا تشرق ابتسامتها إلا على مريض ؟

لي إخوة توزعوا في أنحاء البلد ، بين منخرط في سلك الجندية، و بائع متجول ، و لص محترف لا يكف عن الشكوى من حظه التعس . كنت الوحيد الذي أتم دراسته ، لا لشغف بالعلم طبعا ، وإنما لئلا أكون أضحوكة في البلاد التي سأطوف أرجاءها.

لم تفلح كل مساعي الأقارب في ولوجي معهدا للسياحة. ربت العم على كتفي مواسيا :

على الحاجات أقفال ثقال مفاتيحها الهدايا في الظلام

لم أفهم طبعا ما يقصده لأن ما بحوزتي من معرفة بالكاد أسعفني للعمل في قبو للأرشيف بإحدى إدارات العاصمة.

لكني حتما سأرى العالم !

روتين قاتل يبدأ كل صباح مع الثامنة . ملزم أنا بتحمل الرطوبة
ورائحة الورق العفنة . عشرات الرزم تحوي سجلات الذي قضاوا
دفاعا عن أرض الوطن و سمائه و أغنيائه الكسالى . تدب الحياة
في هذا القبو اللعين حين تطرق الباب أرملة منهكة تستجدي
معاش فقيدها .يتوجب على الصغار دوما أن يعترضوا طلقات
البارود بصدورهم لتنهأ صدور الكبار بالأوسمة !

إنها الحرب.. توازن اللاتوازن .

حين يفقد الكائن الإنساني جدواه و قابليته للسمو !

تعود الأرملة إلى قبوي بعد استكمال الملف . تتوسل المسكينة
ليُصرف معاشها في أقرب الآجال ،فالصغار لا يحتملون ضنك
العيش إلا أياما قلائل . أهي ضريبة الانتماء لهذا البلد ، أم هي
القوانين التي لا تحابي حتى الشهداء ؟

لكني حتما لن أمضي العمر في هذا القبو كأي جرد بائس . يوما
ما سأحزم أمتعتي و أحلق بعيدا لأرى العالم .

أعلم أنني بلغت الأربعين و أنني تحملت لقاء عزوبيتي و أحلامي
سيلا من اللوم و الظنون ،حتى باتت رجولتي ماثرا للريبة و

الشك ! ما ادخرته منذ سنين يكفي لرحلة قصيرة في بلدان
الجوار .لا بأس..عناء الخطوة الأولى يجلب هوس الترحال .

حذرنى جليسي في المقهى من السفر هذه الأيام ، فالجو يسوده
التوتر نظرا لأعمال إرهابية تبادل خلالها الأشقاء تهم زعزعة
النظام .ندت عنه زفرة ألم دفين ثم أردف : كل قطر مخفر كبير
،شعبه مدان ،والمشائق جاهزة قبل ثبوت الأدلة . لا خيار ثالث
لديك في هذا البلد،إما الهجرة أو الشهادة ،فدع عنك مرويات
سندباد !

عدت إلى القبو و الرطوبة و توسلات الأرامل .

عدت لأنسج حلما لا حدود فيه و لانقاط تفتيش و لا تأشيرة
للعبور من ضجر إلى خوف !

[رجوع للفهرس](#)

صاحبى

لم يطق صبرا بعد وفاتها فتزوج. هو نوع من الوفاء الغامض
لذكرها حين تلمس يد أخرى أشياءها، بدءاً من قدر الحساء
ووصولاً إلى أدراج ملابسها. كان الوقت عصراً حين رن
الهاتف. بدا صوته الأجلش ودوداً ومرتبكاً كمن يفصح عن زلاته
بعد انقضاء العمر. توجب علي اللحاق به إلى حفل زفاف متواضع
في الزقاق الخلفي كي أمهر حضوره بفيض الثناء .

سارعت يد إلى فتح الباب قبل أن أطرقه ثم توأرى الجسد المكتنز
خلف ستار رقيق. المكان رطب تغمره سعادة مشوبة بحزن كامن
في زوايا البيت و شقوق حيطانه . دلفت إلى البهو فمدت إلي يد
لتصافحني و تسحبني بلطف خشن للجلوس بجواره . الحاج علي
شيخ ناهز السبعين، لكنه لم يفقد من عنفوانه إلا ما اقتضته لعنة
الروماتيزم . كنت ألقاه بين حين و آخر مقرفاً بجوار المسجد
وأصابه تداعب حبات سبخته .

همس في أذني مازحاً : هل صاحبك هذا ثقة ؟

أجبت من فوري : على ضمانتي ،أنا أعرفه جيدا،فهولا يفسخ العقد ولو تحمل الخسارة وحده ! حدجني مستتكرا ثم أقبل على مدياعه المتهاك يُخفف من حشرجته. كالعادة يخونني هذا المتفلت دوما من قيد الحكمة،أعني الصمت الذي أرخى سدوله على زيجة مثقلة بالهموم..ليبتي!

مُدت إلى الحاج علي يد ناعمة ومثقلة بالأساور.لم يخف صاحبي تلعثمه وهو يثني على الحلوى اللذيذة والشاي الذي لم يتذوق مثله في الأيام الخوالي. كالعادة تأسرنا المجاملات الكاذبة فلا نتورع عن تزييف الحقائق وإنكار ما لا يصح في الأذهان بطلانه.تبسم الحاج علي وهو يلتقط من تردد صاحبي وحببات العرق المكورة على جبينه أن الصفقة ستكون رابحة،وأن اليد الناعمة ستحظى بأساور أخرى تنبض بالأمل .

[رجوع للفهرس](#)

أمي مُعلّمة !

من سخریات القلم أن تجید الكتابة عن هموم الآخرين وما تنثره أيامهم في شارع الحظ السيء من بقايا أحلام وأمانی ذابلة، لكن حين تغرف من قدر التعاسة مصابا أو نكبة أو جرعة هموم، فإن هامش الإفصاح يضيق لاسيما إذا كنت ممن يأنفون الإقرار بأن فارس القلم قد يترجل، وأن شباك الهموم لا تميز الخبيث من الطيب !

أمي معلّمة، لذا لا أخفيكم ضجري من تقليب صفحات المعجم حتى تولد حكايتي هاته مبرأة من كل خطأ إملائي أو زلة نحو، إلا ما اقتضته المشيئة من سهو. فنحن، أبناء المعلمين، موصوفون في الذاكرة الطفولية الهشة بالقرب من معين الضاد، والسلامة من التأتأة والفاقة وعقد اللسان. كنت الابن الثاني الذي ركل أحشاءها في حجرة الدرس، ولم يشأ التريث حتى تتشرب العقول الصغيرة حكمة انفراد الله بالخلق. وفي بلدة لا تبلغ فيها سيارة الإسعاف موقع الحادث إلا بعد انفراج الأزمة، تولى عون حراسة نقلها إلى المركز الصحي على عربة حين بلغ وجع المخاض أشده. أمي تؤمن بأن أداء الواجب ممر سحري إلى السكينة وإلى قلوب

صبية يعولون عليك هنا للإفلات من الضنك. يغبطني بعضهم لأنني
ابن معلمة، فأمثالي ممن يولدون وفي فمهم ملعقة فضة لا يليق
بهم أن ينحتوا الصخر لأجل لقمة العيش. وحدي كنت أوك في
الصدر مرارة لا يبدد غيمتها سوى جدة تولت مكرهة دور
الحاضنة.

وجدتني، بعد أن لفظني الرحم الدافيء، مكورا على سرير أرجواني
بين أب مل من الترقب، وبذل وسعه لرشوة من يبدد لعنة
الجغرافيا، وعجوز تلهج دبر كل صلاة بدعوات لرفع الكرب
والرأفة بزوجين لا تجمعهما غير خطوط الهاتف أو عطل متناثرة
كوميض برق في ليلة داجية ! تمضي الأيام باردة ورتيبة لا يربك
مألوفها غير وجه مدور ومشرب بحمرة خفيفة، يتطلع إلي بلهفة
و يُمطرنني قبلا ودموعا ساخنة تبلل قماطي .. ثم يغيب .

أمي معلمة لذا لن تستغربوا إصرارها على أن أحصد علامات
جيدة في كل الامتحانات. ليس حبا في المعرفة بكل تأكيد وإنما
لجما للهمز واللمز الذي يجعل منها أضحوكة البلدة. مرت طفولتي
يابسة كعود قصب، لأروح فيها ولا شغب. بل حُرمت حتى النرق
الخفيف الذي لا يسلم منه كل ابن مهذب. وحين يملكني ميل
جامح إلى العبث كأقراني، بجر القطة من ذيلها أو الرخص نصف

عار في الساقية المحاذية للمسجد، فإن الأوامر تصدر بحجزي في
غرفتي حتى أذعن مجددا للسياج الشائك الذي يفصلني عن أبناء
البسطاء! رجاء.. لا يسئ أحدكم الظن أو يبصق على الأرض
تشفيا، فأمي لم تخلق من صلصال العجرفة كزميلتها الفاسية التي
تشبه عروس قصب، بل هي سليلة الكدح اليومي لعامل بناء آلى
على نفسه أن يحشر صبيته الأربعة في سلك الوظيفة طوعا
أوكرها، إذ لا قيمة للمرء برأيه، ولا صون لماء الوجه إلا بالدخول
تحت معطف "المخزن". كل ما في الأمر أيها السادة أن لأمي
حساسية مفرطة إزاء معالم "الزلط" * الذي حضهم الجد على
الفكاك من أسره !

صحوت اليوم على زغرودة وصلوات على حضرة النبي. الأب
العائد للتو من العاصمة يفك أزرار قميصه ويسحب من جيب
سرواله منديلا ليمسح رقبته. ساورني شعور بالخوف وأنا أترقب
ما ستفرج عنه شفتاه من أنباء. تبسم وهو يفرك أذني بأصابعه
ثم همس قائلا : بعد شهر ستتضم أمك إلى قائمة المعلمين
بمدرستك، ما رأيك ؟ أليس خيرا سارا ؟

ندت عن الصدر زفرة مغبون ثم رفعت بصري إلى السماء
لأهمس بما لا يجدر بالوالد سماعه :

- يا الله .. رجاء .. مهلة أخرى .. لا تسمح لها بالمجيء الآن !

(*) ترادف الفقر المدقع في اللهجة المغربية

[رجوع للفهرس](#)

بَا عَرُوب

لم يكن للشارع غير اسم واحد : شارع الحرية، إلا أن المرويات عنه تعددت إلى حد يصعب حصرها :

هنا أقيمت قنابل يدوية الصنع على موكب المارشال الفرنسي إبان الاحتلال . وعلى الرصيف المحاذي للميناء رست سفن أجنبية عملاقة ، وتخلص الأهالي من عباءة الفقر بفضل السجائر المهربة و المصنوعات الجلدية الرديئة .

أما سوق الجوطية الذي ستر عوراتنا على امتداد عقود طويلة فكان مسرحا لأشهر الروايات العربية. بل إن مئات القراء توافدوا عليه للتطلع في سحنات البائعين و "الدلالة"، و استكمال متعة القراءة !

أسماء لامعة و أحداث جسام توارت إلى الخلف بعد أن صار الشارع ملكا لكهل قصير القامة يُدعى : باعروب !

زعموا أنه ابن جنية أُلقت به ذات ليلة على شاطئ البحر ، فعثر عليه صياد عجوز تولى العناية به . و قيل أنه ابن مقاوم عنيد غيبتة سجون الاحتلال . بينما رجح آخرون أنه نزيل سابق لإحدى

دور الأيتام قبل أن تضيق ذرعا بقاطنيها وتلقي بهم تباعا إلى الشارع .

وحده با عروب يملك الحقيقة ، لكنه لم يشأ الإفصاح عنها ليظل الغموض رديف سيرته.تلك خطة الغرباء دوما حين تشرئب أعناقهم لما وراء خبزهم اليومي !

استحوذ بدهاء على موقف السيارات أمام دهشة و تساؤلات لم تطل. فما هي إلا بضع رشقات من ويسكي مستورد حتى يبدأ رئيس البلدية بمكاشفة الذات ومصارحة ناخبيه من رواد الحانة ! هكذا علم شارع الحرية أن باعروب "يُدفيء" جيب الرئيس مرة في الأسبوع بربع المداخيل. أيا كان الموقف بعد ذلك فإن الشارع استعاد بعض هدوئه، وكفت علب الصفيح المتحركة عن إزعاج ساكنته بمنبهاتها و بذاعة سائقيها .

آه ,نعم..تذكرت ..وحدھا سيارة رئيس البلدية أربكت منامهم لأشهر, قبل أن يُعثر على حطامها أسفل الوادي . توزع الشارع بين محوّل وشامت ثم عادت أخبار باعروب لتتصدر المشهد.

أصابته لوثة السمسة فاتهمك لأشهر في إغراء الأرامل و المستضعفين لترك بيوتهم ،مقابل وعد بامتلاك شقة ضمن مخطط

للإسكان ترعاه البلدية .حاز إعجاب المقاولين الجدد فاستفاق
شارع الحرية ذات صباح على باعروب وهو يركن سيارته في
نفس الموقف !

ضربة حظ؟ ربما .. لكنها ضربة موجعة !

تغيرت معالم الشارع منذ التحاق المغرر بهم بالحي الصفيحي
المحاذي لسوق الجوطية . صخب لا يكف، وزعيق باعة بالنهار
تعقبه بذاعات غلمان الصفيح ليلا .زعموا أن أقراص الهلوسة
نفحة من "بركات" باعروب قبيل الانتخابات، إلا أن زوجته
الثانية لم تدع حفل عرس أو ختان يمر دون أن تلتصق الشائعة
بظليقته الأولى .الحق يقال، فهي أكثر زوجاته غيرة عليه، و
أملكهن للجرأة على تحطيم المنافسين له في الاقتراع المقبل
.شراسة غير معهودة ممن كانت حتى الأمس القريب أرملة
رئيس البلدية المنتهية ولايته في قعر الوادي !

تندر رواد المقاهي في شارع الحرية بمن أسموهم عشية
التصويت "ميليشيات باعروب" .غلمان وقحون وأرامل
متلهفات للزغرودة .الفوز كان متوقعا دون الحاجة إلى فرز
أصوات منهكة، وأحلام بالدوران في فلك "الحاج" باعروب .

لم أفك حتى اليوم لغز التقابل بين الحج و الانتخابات، و لم
الإصرار على إقحام المقدس في لعبة ترتوي من المدنس !

طرقت سمعي كلماته المتعثرة وهو يندد عبر الأثير بسوء التدبير
الحكومي لملف البسطاء، و يعلن أن حزبه الذي قدم شهداء في
سبيل الحرية، لعل آخرهم رئيس البلدية المنتهية ولايته في قعر
الوادي ،سيكون في الموعد ، و س...

صار لكل بيت صفيحي عداد كهرباء . وازدان شارع الحرية بنقاط
بيع مكشوفة لأقراص الهلوسة ، و بحارس جديد لموقف
السيارات .

زعموا أنه ابن مناضل عتيد غيبته زنازين الاعتقال .

ورجح آخرون أنه نزيل سابق لإحدى دور الأيتام قبل أن تضيق
بهم ذرعا .

وحده الحارس الجديد يملك الحقيقة، لكنه لم يشأ البوح بها كعادة
من تشرئب أعناقهم لما وراء خبزهم اليومي !

[رجوع للفهرس](#)

البيدق

لم تكن "هنية" على علم بما يجري ..

بدا الزفاف عاديا، ونزولا طيعا عند رغبة أب عاشت هنية دوما طوع بنانه. أما الأب الذي لازمه لقب "البيدق" حتى خفي عن القرية اسمه الحقيقي، فكانت تعلقو محياه ابتسامات ذابلة.. يوزعها يمنة و يسرة على حضور تتضح أساريرهم بعطر الشماتة !

لم يجرو أحد من الأهالي أن يحتال على البيدق يوما أو يغتم منه خُطام بعير ! فالرجل رغم قصر قامته، وضمور بنيته إلا أنه يتصدر أخبار القرية و أسمارها. الضحايا كثر، والمقالب تُبنيك عن دهاء غير عادي .

كان اليتم شفيعه لدى أهل القرية ليتولى رعي قُطعانهم لقاء دراهم معدودة، لكنه سرعان ما كشف عن مواهبه ليُصبح تاجرا للمواشي ثم مسؤولا عن تموين الثكنة العسكرية المجاورة بالزاد والأفرشة. وكعادة أثرياء الطفرة الكاذبة، سرعان ما اجتالته شياطين المدينة وناذته مفاتها : هيت لك !

عاد إلى القرية رُفقة صبية كالبدر ليلة تمامه. صدق الأهالي توبته وعزمه التفرغ لرعاية ابنته فتولت أياديهم البيضاء سد حاجة العائدين بعد طول غيبة. كان المشهد قبيل الغروب مكرمة تعالت على الوصف. سلال خضر و أكياس قمح تفد على البيت المتواضع من جهات القرية الأربع. حتى " أمي زهرة" التي تعيش على الكفاف زينت جيد هنية بقلادة من الخرز الملون .

لكن البيدق سرعان ما كشف عن مواهبه مجددا ليقتنع شباب القرية بالعائد المغربي للهجرة ما وراء البحر، فانسلوا اتباعا ! حتى خلت القرية من ساعد يباشر الحرث و البذار و أسرع البيدق إلى تمكين الأهالي من الجرارات و المحارث العصرية لقاء سداد مؤجل .حتى إذا ناءت الكواهل بعبء الديون ،تطوع البيدق للسداد لقاء حيازة مؤقتة للأرض،ريثما يعود ابن مهاجر أو تصل حوالة منقذة !

خيم على القرية همود مهيب..

بدت كأن غاصبا استل روحها ..

الخضرة و بيادر القمح غدت مثار حسرة في نفوس الأهالي ،فعما قريب سيجلب "البيدق" حمالين لنقل خيرات القرية إلى

سوق الجملة حتى يستوفي ديونه، ويُمكن الأهالي من قروض صغيرة تسد الرمق .تتهت شياطين المدينة مجددا للبيدق فاجتالته، لكن ..في عقر داره ! دُبرت له المكائد تباعا للنيل من دهائه وغنائه، وترنح هو مرارا تحت ضربات كادت أن تُفقد صوابه، حتى إذا ضاقت عليه السُّبل قصد كبيرهم لينقاد مُرغما لشروط اللعبة ويُقدم هنية ثمنا للإبقاء عليه و على ..مواهبه !
طبعا، ولم تكن هنية على علم بما يجري، فقد بدا الزفاف عاديا، ونزولا طيعا عند رغبة أب عاشت هنية دوما طوع بناته !

[رجوع للفهرس](#)

"ولاد" فرنسا

جال ببصره في أطراف الحديقة قبل أن يسترسل قائلاً : لو علمت سلفاً أن مآل هذه البلدة سيكون إلى خراب لو افقت "مسيو جون" على الهجرة إلى فرنسا قبل أربعين سنة !

كانت هذه الحديقة فردوساً يشتهي الوافد إليها أن يُدفن فيها. أجل، جداول الماء تنساب في صمت وتؤدة لتروي كل نبتة وشجيرة ، والحشيش الأخضر الزاهي يُغنيك عن الفرش و السجاجيد ، أما صنوف الأزهار الملونة فتسحر العين وتخلب اللب.

رحم الله زمان الفرنسييس !

كان السي علال من الرعيل الذي فتح عينيه ذات صباح على عساكر "المارشال ليوطي" وهم يذرعون أزقة البلدة .توجس شراً في الأيام الأولى. فجذوة المقاومة والرفض توشك أن تتقد تحت رماد الصمت. لكن سرعان ما استتب الأمن وخلا له الجو ليقدم فروض الولاء !

عُين في بادئ الأمر سائسا لأحصنة الثكنة العسكرية. أبدى همة عالية وأدبا جما، فلم تمض سوى أسابيع قليلة حتى صار الجنود ينادونه بـ " مسيو علال ". لم ينم ليلتها من الغبطة. قرر أن يتفانى في عمله ويتودد لكبار الضباط عسى أن ينال حظوة العمل في إحدى الفيلات .

كان الضابط " جون " يراقبه عن كثب. أُعجب بإخلاصه واطمأن لوفائه فاستدعاه يوما إلى مكتبه وخاطبه بنبرة حادة :

- قررت أن أعينك حارسا ليليا للفيلا فإن أظهرت تقصيرا أو تهاونا أفرغت مسدسي في رأسك، مفهوم ؟

تهللت اساريره فرحا فاهوى على يد الضابط ليقبلها وهو يُقسم بأغلظ الأيمان أن أجفانه لن تطرف لحظة حتى تشرق الشمس. منحه "جون" قميصا وثلاث فرنكات وأمره بأن يحلق ذقنه ويعتني بمظهره حتى لا يثير الريبة و الاشمزاز !

قضى السى علال في مهمته الجديدة عشر سنوات. لم يرتكب خلالها أية حماقة. نشأت بينه وبين "مسيو جون" ألفة خاصة. كان يرافقه في رحلات القنص فيبدي براعة في تحديد المواقع ونصب الفخاخ. حرره سيده من ربقة الأمية فصار يرطن

بالفرنسية كأنه من بني الأصفر، ويشعر بالزهو حين يسرد انتصارات نابليون وخرافات "لافونتين"، ويحدث رفاقه عن شوارع باريس و نهر السين وجودة العطور الفرنسية !

هبت نسائم الحرية و الاستقلال وعلت الفرحة محيا الجميع إلا السي علال .حالت ضغوط العائلة بينه وبين الهجرة .حذجته أمه العجوز بنظرة قاسية وهي تتوعد :

- لو سافرت إلى بلاد الكفار فسأمت ساخطة عليك !

أخبر سيده بعزمه البقاء مكرها .ربت على كتفه ثم ناوله ظرفا مغلقا وأمره أن ينقل ما شاء من أثاث الفيلا إلى بيته، و يبيع الباقي قبل أن تطاله أيدي المخزن الجديد .

اكترى حانوتا بسوق البلدة وامتهن تحرير الرسائل والشكاوى وطلبات العمل. إجادته للفرنسية وفرت له لقمة عيش هائلة، لكن لوعته لفراق "مسيو جون" وحسرتة على الزمان الذي ولى لم تفارقه .

رُزق بثلاثة أبناء فحرص على تعليمهم غاية الحرص، حتى إذا شب أكبرهم عن الطوق هياً له أسباب الهجرة إلى فرنسا وأوصاه بأن يكون سنداً لأخويه حين يلحقا به السنة المقبلة !

شاخ السي علال وذوى عوده .إنه الآن يقضي سحابة يومه في
التجوال والتحسر على مآل البلدة. يرقب مجيء الصيف ليحضن
أبناءه الثلاثة ويستفسر عن أحوال فرنسا !

[رجوع للفهرس](#)

خطاب سفلي إلى جهة عليا

" سيدي رئيس الوزراء

ليس فيما أبته بين ثنايا هذه السطور تظلم أو استعطاف، لأنني آليت على نفسي ألا تكون الشكوى لغير الله، عملا بالحديث الشريف " أدوا ما عليكم وسلوا الله الذي لكم "، وبالمثل الشعبي البسيط "الشكوى لغير الله مذلة". لكني ارتأيت في هذه الفسحة التي تفضل علي بها اللهات خلف لقمة العيش أن أتصرف في الأفعال والأسماء، وأسترد حظي من التكريم الذي شرف به أبي لما أسجد الله الملائكة حوله !

سيدي الرئيس المحترم

في وطننا العامر الذي توزعت فيه الحقوق والواجبات بحسب ما يقتضيه دستورنا الوارف، آمنت فئة من أبناء البلد أن الحق والواجب صنوان لا يفترقان، وأن شرف الانتماء يعلي من سقف التضحية أحيانا ليتحقق الواجب ولو على حساب الحق. هذه الفئة ،سيدي الرئيس، هي من منظور وزير خزنتكم مجرد أرقام استدلالية وأجور منهكة تصرف آخر كل شهر. وهي عند وزير

تعليمكم صدام مزمن لا يخف إلا بالوعود المهدئة. لكنكم لو
أنعمتم النظر فسيتململ حتما ضميركم الذي استتر، ويتبين لكم أن
في شعف الجبال كائنات حية أرغمها العمل الوظيفي على دفن
زهرة شبابها .

قيل للمرغمين على تسلق الجبال سعيا وراء زينة الحياة الدنيا أن
مهمتهم نبيلة ورسالتهم لا يطيقها غير الأنبياء. هل في الدنيا ما
يستحق النبل غير معرفة تنير ظلمة الجهل؟ أكاد أجزم أن شفتيكم
الكريمتين انفرجتا اللحظة عن ابتسامة ذات معنى أليس كذلك؟
نعم سيدي الرئيس، هناك ظروف عصيبة يحظى فيها العلم بالركل
والصفع والهراوات بينما يظفر الجهل بالمناصب. وفي المنعطف
لا بأس أن تتسارع الخطى بين الرحم والزنزانة مادام الوطن
أعلى من الروح.

قضى حملة النور سنوات يمضغون الشوق إلى حياة لائقة بحسب
منطوق دستورنا الوارف. كانت الأيام والليالي دهورا لا
تُحتمل. كونك مبعوثا من "دار المخزن" إلى أقاصي الألم يمنح
انتسابك للمهنة سمة الخطوط المتعرجة. حكى لي صديق من
المرغمين أعلاه أنه اكتشف سر تعلق الأجانب بزيارة مداشرنا
النائية. هو الحنين المتفرد إلى ما قبل الثورة الصناعية. حنين إلى

المشي بتؤدة بدل اللهاث خلف الأتوبيس، وإلى الصيغ البدائية للطهو والنوم والمسامرة. حينين إلى دفقة الشعور التي تغذي صلتك بكائن يكتفي من الدنيا بمهمة حارس للمغارة. إن راقتم هذه الفذلة فالمرغمون، سيدي الرئيس، استنفدوا كل متعة لاكتشاف المجهول، وإن عكرت مزاجكم فلكم واسع النظر !

سيدي الرئيس المبجل

أكره الغيبة كما أكره التزلف والاصطفاف المراوغ. ليس من الحكمة أن يبذل المرء وقته في إحصاء نبض الآخرين و اقتفاء خطى أمانهم وهمومهم. بيد أن للظلم وطأة على النفس تصبح معها كل الخيارات ممكنة ومتاحة. كانت زميلتي التي مضى على تسلقها الجبل سنة واحدة تهزأ من حرصنا على لزوم الخط المستقيم. صحيح أنه أقصر مسافة بين نقطتين لكنه لا يغني من الأمر شيئاً في مجتمع سافل. للأمانة سيدي الرئيس فقد أبديت امتعاضي من هذا الوصف لكنها طمأنتني بأن مخارج حروفها أبلغ في التهذيب مما يفرضه واقع شرس.

هيأت زميلتي ملفاً طبياً به قائمة من العاهات النفسية لتلحق بذويها في العاصمة، أمام دهشة جم غفير من المرغمين الذين لم

يستوعبوا بعد أن روح القانون أرحب من كلماته المنحوتة بدهاء حتى وإن كانت روح شيطان.بلغني أن يومها في العاصمة موزع بين العناية بصغيرها وتبادل وصفات الكعك مع رفيقاتها عبر الواتساب،والفضل لابن خالها جهبذ العمل النقابي وراعي حقوق المرغمين.أما زميلي الثاني فأثر تسلق المهام في حزب عتيد والانحياز لهموم مواطنين ليس من بينهم،دون شك،ثلاثون صبيا تُركوا فريسة لانتظار موجه.

سيدي الرئيس المُ....."

بدا له التوقف عند هذا الحد ضروريا كي لا تسبب الرسالة دوارا لمعالي الرئيس،فمرويات العبث بالقانون وآمال المرغمين لا تنقضي. تفحص المکتوب بعناية صيرفي كي لا يزيغ القلم عن حدود اللباقة،ثم أطفأ الحاسوب واستلقى على سريره.

" سيدي الرئيس المظفر ..

أمام يقين مسبق بتجاهلكم لرسالتي،وسخف الاعتقاد بأن وقتكم الثمين سيسمح لكلماتي أن تتحرر من قيد حبرها الجاف،أجدني مضطرا لرفع الكلفة قليلا.وإبداء قدر من التذمر لا يليق طبعا بحرص حكومتكم على إنتاج وتصدير الأمل في هذه الظروف

البائسة.لطالما أثرت في نقاشي مع المرغمين حول مستقبل المنظومة، أن علينا التخلص من فكرة التبجيل التي توحى بها قصيدة شوقي ذائعة الصيت.فالذي يدنينا حقا من الرسل هو الأذى والتضييق المشترك, وإلقاء تبعه المنظومة بأسرها على عاتقنا بينما تقضي البقية عمرها الوظيفي في إصدار الأوامر وحصد الامتيازات.إن بإمكان أحدهم أخذ الحصان إلى النهر لكن يستحيل إجباره على الشرب. وللأسف سيدي الوزير لازال في مفاصل إدارتنا الشامخة من يؤمن بأن العصا خرجت من الجنة، وأن العدل قيمة ثانوية وإشكالية لا تقلق غير بال الفلاسفة ! "

قفز مذعورا من سريره ليتفقد حاسوبه.دوت في الغرفة ضحكة مجلجلة حين اكتشف أن المقطع الأخير ليس سوى دفقة لا شعورية تفصح عن واقع الحال،لكنها لا تضمن بلوغ الخطاب مكتب سيادته !

حتى أحلامنا باتت تضيق بجرأتنا الكاذبة حين تستحيل لباقة في مكتوب سفلي ..لا يصل !

[رجوع للفهرس](#)

جنان القرمود

في البلدة التي لا وسع لك فيها إلا الصمت، تفقد المعاني دلالتها على الأشياء .

تدخل السماء و الأرض في علاقة تجاور غريبة تتلاشى إثرها دلالات السمو و الارتقاء .

تلك كانت بلدي ، أنا المسمى ع.س .

لها كغيرها من البلاد جهات أربع وزاوية اقتراب من مدار الجدي . أهلها يقظون حتى الثمالة، فلا يكاد غريب أو حتى قريب ينجو بفعلته ، أيا كانت الفعلة : علاقة حب .. تفويت قطعة أرضية .. عبور الشارع بكيس فواكه .. توقع أزمة .. تدبير اختلاف ..

فضول ؟

لا سامح الله ! بل هو إكساب معنى للوجود بمحاذاة غابة لا تبوح بأسرارها إلا لغريب أو سائح متجول .

هنا وُلدت أحلام ووُئدت مشاريع الولاء لها قلبا وجيبا ! هي أرض تأخذ لا لتعطي بل لتسحب من ملامحك ما تبقى من فضيلة

الانتماء . أسميتها ذات أرق : جنان القرمود , وللقرميد هنا
بلاغته الخاصة في الإحالة على رؤوس لا تكف عن التمتمة
بمزمور واحد : كل الوفاء لمن أرخى على حضورها ستار العتمة
!

الشتاء يُلقى على وجودك فيها رداء التوجس . كل العيون التي
تتفحصك جيئة وذهابا تدلف دونما استئذان إلى خزنة أسرارك
ونواياك.مدان أنت طالما تجد السير في طرقاتها مبتسما لهذا و
ملقيا التحية على ذاك .ليس في القلوب هنا متسع للوصال .

في ثنایا الرتابة التي تلازم دورة الفصول ،يندس توق غريب
للهدم ،وزعزعة السلام الهش بين الكائن و المكان .تلفظ البيوت
صغارها لتجتاح طرقات البلدة كسرب من القوارض .أجساد
صغيرة متحفزة دوما لاختبار صبر الأشياء و ثباتها ! أياد تمتد
لتنزع عن الشجر لحاءه،و عن الخضرة بهاءها المعتاد.حتى
الطيور في سماء بلدي لا تكف عن المناورة و الدنو ،بحذر
المُهربين ،من فتات الخبز الملقى على الأسطح و الشرفات .

يفتح الصيف ديوان الجلبة , فتكسر البلدة صمتها المعتاد كلوح
زجاج.تتناثر الشظايا في الأزقة و الممرات التي تنضح بالرطوبة

و الكسل .لستَ أكثر من صرة نقود في بلدتي ! مادمت تدفع
فأنت السيد المالك لصهوة خيلها و ليلها .

تضج المقاهي بأجساد رخوة و عيون متوثبة. تقرأ الصبايا فيها
خبث الرسائل المشفرة فيذرعن الشارع بخطى وئيدة . يطرق
سمك همس بذيء قادم من الزوايا المعتمة.اليوم خمر و غدا
خمر، فلا معنى للحياة هنا إن لم تكن قطعة من الهديان !

ينفض الخريف عباءة صيفها لتبدأ رحلة المرآثي وجوه يعلوها
صدأ السنين وغيظ مكتوم من قسمة الباري لأرزاق
الخلق.للقرميد هنا بلاغته في الإحالة على كائن يضيق بالزمان
والمكان .

إنها بلدتي، أنا المسمى ع.س

لا وسع لك فيها إلا الصمت، حتى تفقد المعاني دلالتها على
الأشياء .

[رجوع للفهرس](#)

لبيك..!

يرتجف اللحظة كديك مبلل..

لم تسعفه ركبتاه على الوقوف فألقى بجسده على مقعد مهترئ
بجوار مكتب القائد. عسو الذي يهابه من في الحي، ولا يجرؤ
أحدهم على التنديد بعربدته أو التذمر من متتالية الكلام الساقط
التي تعقب جلسات الشرب الصاخبة كل ليلة.

عسو الذي قلما غاب اسمه عن حادثة نصب أو احتيال، ثم أفلت
من قبضة الاتهام بدهاء ثعلب.

عسو الخبيث وقاهر الأرامل سيحج بيت الله الحرام !

أية قرعة عمياء تلك التي أوردت اسمه ضمن محظوظي البعثة
الرسمية لأعوان الوزارة؟! لا شك أنها مزحة ثقيلة من
"سعادة" القائد المتجهم طيلة أيام الأسبوع. لكن الورقة بين
أصابعه ترتجف اللحظة، وفيها إخبار بانتسابه هذه السنة لبعثة
الحج. لا، هذا غير معقول! كيف بلع الجميع أسنتهم ولم يعترض
أحد؟ أهي الصدفة أم مشيئة في السماء ترتب لمنعطف آخر في
حياة عسو؟

حيا زوجته على غير العادة ثم ارتقى فوق سريره. عم المكان
هدوء مشوب بالحذر. لا شك أن الزقاق سيضج بالنكات الساخرة
حين يذاع الخبر :

- " الحاج " عسو عائد من الخمارة !

- ما ذنب ضيوف الرحمن حتى يعكر عليهم صفو المناسك.

- يهدي الحجيج لذويهم قارورات من ماء زمزم أما الحاج عسو
فلن يتوانى عن تقديم مشروب آخر !

لن يتحمل الغمز واللمز من أبناء ال... لا وقت للشتائم القذرة الآن
حتى يفرغ من أداء المناسك.

وقعت عيناه على مصحف صغير في الدولاب المحاذي
لسريره. إنه للابنة الوسطى التي تقضي سحابة يومها في دار
القرآن. أرغمت المسكينة على الزواج من مهرب للأحذية
والسجائر مقابل تسديد فاتورة غامضة. وحده عسو الراجح دائما !
بعد شهر عادت إلى البيت مهشمة الأضلاع وحول العينين هالات
زرقاء. لم يملك القاضي غير الحكم بالتطبيق غيابيا بعد أن قدمت
المسكينة عرضا هستيريا ليوميات العذاب.

لم يكن عسو أبا بالمقاييس العادية، فالزوجة التي انتابها خوف من المستقبل سارعت إلى امتلاك سلاح الذرية لتثبيت وضع هش :

- لكل مولود رزقه !

تلك ذريعتها دائما كلما انتفخ البطن ليُرغم عسو على إضافة متسابق جديد إلى قائمة الأمعاء الخاوية. لم يفلح في ثنيها عن خوض حرب ديموغرافية لذا قرر التعبير عن تدمره بشكل عملي: ما إن يشب أحدهم عن الطوق حتى يلقي بالصبي في ورشة للنجارة، وبالفتاة خادمة في البيوت مع تحميلهم الصائر !

تفحص الورقة مجددا عل تشابها في الأسماء يعيد الأمور إلى نصابها. لكن رقم الخدمة التسلسلي يفيد أنه المعني. حذق في السقف كعادته حين يستعيد شريط حياته في لحظات الصحو المعدودة :

- كيف يعبا الله بخنزير مثلي لم تطأ قدماه باحة المسجد سوى مرتين، الأولى للتبول في مراحيضه النقية، و الثانية لإبلاغ الفقيه احتجاج السلطة على تماديه في شتم اليهود، وتذكيرهم بفاجعة خبير ! أجدير أنا حقا بلفتة ربانية تمحو كل الويلات السابقة؟

ارتبك قليلا قبل أن يطرق باب غرفته. الضوء الخافت المتفلت من شقوق الباب يفيد أن الفقيه لازال مستيقظا :

- في الأمر حكمة قد تحجب عنك غشاوة الآثام وميضها. لكن، من يجرؤ على التشكيك في رحمة الله التي وسعت كل شيء ؟ أسمعت يا عسو؟ كل شيء ! فاهناً بما ساقته إليك المقادير.

وضع رأسه المثقل بالأسئلة على المخدة. جوفه متقد كجمرة لكنه لن يسلم نفسه مجددا لغواية سفلية. سألت على الخد المتغضن دمة ساخنة ثم دمعان. بكى بحرقة كيوم خذلته أمه لتسلم نفسها لأخدود رملي في مدخل البلدة. صدى دعائها يتردد اللحظة في ثنايا ذاكرة متعبة. هتف بشوق وهو يستجمع ما تبقى في الفؤاد من ندم :

لبيك !

[رجوع للفهرس](#)

يا شيخ ..

أطلق عليه النار فندت عنه آهة سرعان ما خفتت ليسلم خده
للإسفلت .

اشتباه ؟

ربما، لكن لغة محاضر الشرطة لا تسعفه ليلا ليخلد إلى النوم
صافي الذهن كأبي بريء في هذه الزنزانة الأبدية . تلك الحقيقة
الموجعة التي تسربت ساعتها بظلمة دامسة، في ليلة شاتية بعيد
صلاة العشاء، تؤرق مضجعه. لم يكن الأمر اشتباها بل رغبة دفيئة
في "تنظيف " الحي من الملتحين أمثاله! هذا الشيخ الذي ما إن
وطئت أقدامه مسجد الحي حتى أومضت في العقول والأرواح
شعلة اليقظة.

للكينونة سحرها، وحين يطمئن الآدمي إلى تعليل ما لسر الوجود
، وحكمة الباري من تتابع الفصول الأربعة بين الرحم والقبر، فإن
جذوة في الروح تتقد، ويحملك الذي كان حتى أمس القريب
مخدرا وملقى على ناصية الدرب كسقط متاع ، على احترام حقه
في الظهور وصنع الحدث !

كان الحي لم يشهد ليالي خمر وأنس، ولم تعرف زواياه المظلمة
قطفا مستعرا للفاكهة المحرمة ! بئست الذاكرة التي توشك أن
تلقى به في هوة النسيان كما ألت بخلان الأمس القريب يرقبهم
بين الفينة والأخرى من نافذة غرفته. هاهم اللحظة يسرون خلف
الشيخ بتودة بينما تعبت أصابعهم بحبات المسبحة.

- الأوغاد ! لولا رفقة الصبا لتعفت أجسادهم في الزنازين
أسارع دوما إلى انتشال أحدهم من فضيحة أو دين تعذر
سداده، ولو علمت أنهم سيديرون لي قفاهم لما أفلت أحدهم من
جز رأسه كخروف وإلقائه في حفرة!

كاد أن يبصق شامتا لولا غسيل "أمي يامنة" في شرفة الطابق
السفلي. عجوز ستينية تجود بين حين وآخر بطبق فاصوليا أو
أقراص خبز ساخنة تحرك جذوة الحنين إلى.. تبا لهذا الشيخ،
حتى أمي يامنة لم تسلم من حباله فصار للطبق وأقراص الخبز
وجهة أخرى.

عيون متقدة كالجمر تترصده، أما العجوز فكفت عن تشييعه
بدعاء النجاة من "أولاد الحرام". ربما لأنه صار واحدا منهم.
ينهض النادل متثاقلا ليضع فنجان القهوة بخفة ساحر ويرتد

مسرعا إلى مكانه. ينقر بسبابته ليبدو غير آبه بما يسري داخل المقهى من همهمات ثم يتحسس مسدسه.

نومه ترتيلة أشباح وخوف. ينسل كفن من محضر الشرطة لتبدأ المطاردة في درج المئذنة. تحتم في سمعه أصوات الزغاريد والأذان وطلقة الاشتباه. يركض، ويصرخ، ويسعل. عبثا يحاول الخلاص من كفن يلتف حول عنقه. تمتد يد إلى الكفن لتسحبه. تتطاير أوراق محضر الشرطة. اشتباه؟ ربما يظهر الشيخ مبتسما كعادته وحوله خلان الأمس ونادل المقهى وأمي يامنة. يحل الظلام في طرفة عين فتتناثر الوجوه من حوله كذرات غبار. يقف وحيدا تحت المطر البارد والمخيف. كل قطرة تلسع روحه. تغرز إبرها في مسام جلده. قدماه ملتصقتان بالأرض ويدها تضغطان على الزناد. اشتباه؟

للروح كوة تشرف منها على حقائق لا تصدقها الحواس. يأخذ الحاضر في مناسبات ووقائع عديدة شكل المخطوط الذي لا يكف الماضي عن نسخه وتعديل فحواه، ليكسب المجرى الإنساني غرابة وانزياحا عن المتوقع و المأمول. روحه الآن ممسكة بتلابيب الشيخ لا تفارقه.

يصف قدميه خلفه فتغمره السكينة المشوبة بندم الغافل..

يسجد فتمنحه الأرض دفئها..

يلهج بالدعاء فتفرج السماء لملتمس الغفران..

لست سوى مخطوط يا ابن آدم !

[رجوع للفهرس](#)

وعد

مطر خفيف.. يبيل الحيطان.. و ينفض عن شجيرة اللوز عناء
صيف حار .. غمرتها نشوة طفولية وهي تعترض الرذاذ بلسانها
..لمحت من بعيد قوافل الجند ..شاحنات متهاكة تتلوى في
المنعرجات كحبة متعبة ..ساورها القلق ..تسارع النبض وهي
تخمن في رسالته الأخيرة:

" سنلتحم قريبا بجيوش العدو ..لا تنسي أن تصلي لأجلي
..واحرسي جيدا شجيرة اللوز ..سيكون زهرها الأبيض طوقا
يزين جيدك ليلة العرس ..إلى اللقاء "

ترددت قبل اللحوق بالأهالي إلى الساحة العامة ..ارتدت معطفها
وحثت الخطو لتحظى بموطئ قدم وسط هذا الحشد المتلهف !

اصفرت الشمس مؤذنة بالمغيب ..هي ذي الشاحنات قد دنت
لتوقف سيل الظنون ..خيم صمت رهيب على الحشد قبل أن تفرغ
الشاحنات ما في أحشائها من بقايا حرب مستعرة ..أشباح آدمية
..ما بين مكلوم و مثخن و مسجى على لوح خشبي ..

اندفعت الأمهات بلوعة يتفحصن الجثث..تسمرت هي في مكانها
ترقب المشهد ..هل ستلقاه راجلا أم محمولا على لوح ..هل مات
؟ كففت دموعها و اندفعت تتفحص الأجسام الممددة ..

"آسف حقا ..انفجرت عبوة تحت قدميه فتناثرت أشلاؤه ..لم
يتبق منه غير خاتم ورسالة صغيرة"

شدت من أزرها ..تجلدت وهي تفتح الرسالة بأصابع مرتجفة ..
الحروف تتراقص كأزهار لوز يداعبها النسيم :

" حتما سأعود..هذا وعد "

[رجوع للفهرس](#)

آمنة

" عجل بالإياب .. آمنة تحتضر "

ألقى السماعه من يده وحث الخطى صوب البوابة الخارجية
مستحيل .. آمنة ؟ .. الزوجة و الأم و الحبيبة .. توشك أن تفارقه ؟
ركض كالمجنون غير عابئ بالدمع المنهمر .. تداعت الذكريات
أمام ناظريه كشريط مسجل ..

آمنة عادة الحي .. ست الصبايا .. حظيت بحسني الظاهر و الباطن
.. وقلما اجتمعا في صبية .. كل شباب الحي يخطبون ودها لكنها
اختارته لدمائة خلقه وطيب معدنه !

حلقت طيور الصفاء فوق عشهما الدافئ الصغير .. كانت آمنة نعم
الزوجة الصالحة .. القنوع .. وكان هو لا يألوا جهدا في توفير
أسباب السعادة .. رزقا صبيين فاكتمل سفر الرضا .. مرت السنون
كأنها لحظات .. شب الولدان عن طوق آمنة .. وغادرا العش صوب
أحلامهما على الضفة الأخرى .. بكت آمنة أما هو فتجلد :

- هي سنة الحياة ومشينة الرحمن !

غشي البيت همود ورتابة .. هو يقضي سحابة يومه في المعمل
..أما آمنة فتزجي الوقت في تطريز المناديل وتقليب ألبوم الصور
..ترفع بصرها بين الفينة و الأخرى لتعد ما تبقى من سويعات
قبل عودته .

طرقاته الخفيفة على الباب تبدد وحشتها فتسرع إليه لتحضنه
..يمسح جفنيها المتورمين دمعا وشوقا إلى الغائبين ،ثم يبزي
نبال الضحك ليصيب حزنها في مقتل !

ذات صباح شعرت آمنة بمغص شديد ..أنياب من حديد تمزق
أحشاءها .بدا للألم أن يمارس غوايته الخاصة ..فينفرد بضحاياه
في ساعات الوحدة و الانكفاء على الذات ..أن يلتذ بالمباغثة في
أحلك لحظات العمر ..لم تشعر آمنة بأعراض و مقدمات كعادة
من يمرضون !

قضت ليلتها تسبر غور أحلامها ..في الحقيقة لم يكن غير حلم
واحد ..حلم إياب الطيور المهاجرة ،وعودة الدفاء إلى العش
الصغير .

تجلدت ..تحاملت على نفسها وغادرت الفراش ..لا تحب أن تراه
مهموما ..تعلم جيدا أنه يوارى شوقه لابنيهما خلف بسمات

يوزعها في أرجاء البيت كلما عاد منها . يستعد له وجبته الأثيرة
و تحيك له جوارب من صوف , فالشتاء على الأبواب .

بيد أن عزيمة الألم لم تنتن ..سرعان ما شعرت آمنة مجددا
بكلايب تقتلع أحشاءها ..صرخت ..حثت الخطى صوب فراشها
لكن قبضة الألم اشتدت ..تناهى إلى سمعها لغط الجارات قرب
الباب ..أحست بخدر مريب يسري في قدميها ..هوت على الأرض
ثم أطبقت جفنيها تاهبا ..لحلم جديد !

لأول مرة تراه باكيا ..لم يتمالك نفسه حين أطلعه الطبيب على
حقيقة الوضع ..لا أمل! فالسرطان اللعين سرى في البدن سريان
النار في هشيم يابس .

توقف قليلا كي يستجمع أنفاسه ..ويجفف عرقه المتصبب بغزارة
ثم واصل الركض ..دنا من الباب فسرت في بدنه قشعريرة غريبة
..التقط أنفاسه ثم فتح الباب ..

إن سيرة الألم غامضة حقا !..

إنه يفتح دولا ب الجسد ليطارد شعلة الروح، وحين يوشك أن
يلملم أسفاره يمهر صاحبه بوهج طفولي !

هكذا بدت آمنة وهي ..تمتطي سهوة الحلم !... [رجوع للفهرس](#)

إضراب

كانت أعينهم البريئة مشوبة باستفهام غريب .. لأول مرة تطرق هذه المفردة أسماعهم .. تحاشى النظر إليهم وهو يصر على الوقوف بمحاذاة الباب غير آبه باصطفافهم المتعب في انتظار الدخول .

- يا صغاري أنا أخوض إضرابا لذا سنؤجل حصة اليوم إلى أجل لاحق ..

تبادلوا نظرات الاستغراب ثم سرت همهمات طفولية تفكك العبارة لتحدد المبهم منها.. تماسك كي يخفي حرجه وتوتره ..ليتهم ينصرفون.

في الخلف صبيان يتدافعون ليُسندوا أكتافهم على الحائط .
حدجهم بنظرة قاسية، وقبل أن ينبس بكلمة تذكر أنه مُضرب !

- تعبنا يا أستاذ.. هل بإمكاننا الانصراف ؟

تعثرت الكلمات وارتطمت بسقف اللهاة ثم ارتدت إلى الخلف خجلى ! كيف يأذن لهم وهو الذي قضى سنوات ينفث في روعهم قيمة الوقت وجدوى الحياة و حكمة الوجود ؟

كيف يصرفهم وهو الذي لم يَضِن يوماً بوقته أو جهده ليرببهم
على الجود بالنفس و البخل بالوقت ..ويعلمهم أن الأمة التي تهدر
وقتها لن يعز عليها أن تهدر ثرواتها،وتبدد كنوزها، وتستهيئ
بسواعد و أرواح أبنائها؟

كيف يزيح من عقولهم الغضة لوحة القديس المنقوشة ببراعة
ليثبت صورة الكهل المثقل بأعباء الحياة؟

بدت الصبية الواقفة بجواره مرتبكة وهي ترفع أصبعها لتسأل
بصوت مرتعش :

- أستاذ، لم أفهم معنى كلمة إضراب

- الإضراب يا ابنتي هو ..

توقف فجأة ..تطلعت إليه كل العيون الصغيرة تترقب ما يُشفي
عليها ..تنحج مرتين ثم عدل ياقة قميصه وصاح بلهجة الواثق
:

- قفوا مثنى مثنى ثم ادخلوا بتؤدة ..إنه دورك يا صفية لتوزيع
الكراسات.

[رجوع للفهرس](#)

الرُّعَاة

إني أراهم هناك .. على تلة هادئة.. يعفرون وجه السماء بغبار
قطعانهم .. يمدحون الله بموال .. مشدود إلى أوتار القلب
.. يصفرون.. يغنون .. يركضون خلف الحملان الوجلة .. يمتلئ
الوادي ثغاء .. وحين يتعبون .. ينتقون من قعر الوادي حجارة
ملساء.. يصفونها .. ويوقدون عليها النار .. حين تتقد الحجارة
يطهون عليها خبزهم.. ويعدون شايعهم .. ينتشون بما جادت عليهم
به .. يد الإله الحانية يتمددون .. يتقلبون كأنما التل فراش
أثير.. تبرك الشياح حولهم فيهدأ كل شيء ..

إني أراهم هناك.. بعد أن مالت الشمس إلى
المغرب.. يتلاومون.. يركلون أشياءهم غيظا .. القطعان تفرقت
أيادي سبأ.. يمت كل شاة إلى حيث الكأ الوفير .. ركضوا بجنون
في كل اتجاه.. يللمون شعث القطيع .. صفير و صياح و ثغاء
يُحيل المدى سمفونية صاخبة .. تجمعت الشويحات بعد إنهاك و
غضب .. جدت المسير صوب القرية .. كتائب من الصوف الأبيض
تكسر رتابة المشهد ..

إني أراهم هنا .. متحلقين حول الدكان الوحيد في القرية
.. يتسامرون .. يدخنون التبغ الرديء .. يحتسون الشاي في كووس
باهتة .. يلحون على شيخ يرقب أذان العشاء لأن يروي لهم نتفا
من سير البطولة .. يتأفف الشيخ ثم يشرع في نسج خيوط
الحكاية .. ينصتون بشره .. يملأ الجو عبق الخرافة .. جنيات و
عفاريت و ساحرات .. يمرر أحدهم أصبعه على قفا صاحبه
.. ينتفض كأنما لدغته حية .. يضحكون .. يُقسم الشيخ ألا يكمل
الحكاية .. يغمغمون .. يتفرقون كل إلى خيمته .

إني أراهم هنا .. ذات صباح يحملقون .. في شاحنات محملة
بقضبان سميكة .. قيل لهم أن خط السكة الحديدية سيشطر قريرتهم
نصفين .. همهموا ثم ساقوا قطعانهم صوب التلة الهادئة ..

مرت أسابيع على بدء الأشغال .. انضاف العمال إلى حلقة الدكان
.. أجبر الشيخ على رفع صوته ليبلغ آذان الجميع .. لم يُنصتوا
بشره كالعادة .. فهم متوجسون .. ينتابهم إحساس غامض بأن هذه
السكة ستنتفث سمها على القرية .

ذات يوم قانظ حيل بينهم وبين التلة الهادئة ..أجبروا على تزيين
القرية احتفاء بسعادة المحافظ.. سيدشن خط السكة الحديدية ..
زفروا ..حكوا الأرم غيظا ..ثم عادوا إلى خيامهم حنقين ..
إني..لا أراهم هناك !

[رجوع للفهرس](#)

القصص القصيرة متنفسي الوحيد للتنديد و
الاحتجاج ، وعرض آرائي ضمن قوالب لا تؤثر في
شبكة علاقتي الإنسانية.

بعضهم سينزعج حتما حين يلمس الفارق الهش
بين البوح بمصاعبه اليومية وبعض أقصوصاتي .
عذري الوحيد أن لكل بوح لمساته الفنية الرشيقة
التي تستحق أن تُدرج ضمن سياق أرحب .
كلنا من آدم !